فى استقاق كلمة صوفى

للمستشرق الكبير

العلامة د . س . مرجليوث

أستاذ الأدب العربى بكلية أكسفورد

تفضل العلامة الكبير ، الأستاذ مرجليوث المستشرق المعروف ، وأستاذ الأدب العربى بكلية أكسفورد — بكتابة هذا المقال بعد مكاتبة دارت بيننا فى شأن « كلمة صوفى » التى نشرت بالجزئين الثالث والرابع من هذه المجلة ، فقد ذهبنا إلى أن الكلمة يونانية لاعربية ، وأثبتنا ماقررناه . لكن الأستاذ مرجليوث ، رأى أن يكتب إلينا ملفتا نظرنا إلى أن له رأيا يخالف رأينا ، وأنه كتبه فعلا ، ولكنه أمسك عن إرساله ، ظانا أن محرر المجلة « لا ينقض ما أبرم ويهدم ما بنى »

(العلامة د . س . مرجليوث)

فلم أر بدأ من الكتابة إلى الأستاذ ، شاكرا له عنايته بالبحث ، مرحباً برده ، ملحا فى طلبه لنشره . ليطلع عليه قراؤنا الكرام ، ومن ثم للتعليق عليه .

وقد أبى أدب الأستاذ إلا أن يجيبنا إلى ماطلبنا ، فبعث بمقاله — أورده بعبارة أصرح — وها نحن أولاء ننشره معجبين بغزارة مادته ، وسعة إطلاعه ، وتعمقه فى البحث ، وإن كنا نعتقد أن تلك أشياء يسيرة بالنسبة لرجل كالعلامة مرجليوث ، الذى يعتبر بحق أحد كبار المستشرقين ، إن لم يكن شيخهم على الاطلاق ، وبحسبه معرفة ، ما نشره على العالم من كتب العرب ، التى بعثها من مرقدها .

ويرى القراء صورة الأستاذ وهى منذ زمان « قبل غلبة المشيب » على حد تعبيره الذى استشهد له فى كتابه إلينا بقول الشاعر :

وما خضب الناس البياض لأنه قبيح ولكن أحسن الشعر فاحمه

وبعد فانا نشكر الأستاذ الجليل على ما تفضل به من ثناء وتشجيع يمنعنا الحياء عن ذكره، فنكتفي بهذا مرجئين رد نا — بعد أن كتبناه — الى الشهر المقبل، لتكون لدى القراء فرصة التفكير في رأى الأستاذ، الذي نخالفه تمام المخالفة. ونرى الوقف عند هذا الحد فقط، إجلالا لرأيه؟ المحرر

***

لقد خدم الأديب الفاضل الأستاذ عبد العزيز مصطفى الاسلامبولى اللغة خدمة جيدة، بجمعه ما قيل في اشتقاق كلمة صوفى واستيعابه ذلك الموضوع، وقد عدد آراء تسعة فرفض الثمانية واستصوب واحدا هو اشتقاق الكلمة العربية من كلمة يونانية معناها الحكمة (١) وفي ذلك نظر لأسباب أذكرها: —

ذكر أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ في كتاب ولاة مصر (طبع بيروت ص ١٦٢) في حوادث سنة ٢٠٠ أنه ظهر بالأسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف زعموا، ويعارضون السلطان في أمره، فترأس عليهم رجل منهم يقال له عبد الرحمن الصوفى. اهـ فكأن هذا أول ظهورهم، ومذهبهم الأمر بالمعروف ومعارضة السلطان. وليس في ذلك ما يدل على أنهم ادعوا حكمة ينتسبون اليها.

ويؤيد قول الكندى ما ورد في مروج الذهب للمسعودى (طبع باريز ٧ : ٣٩ طبع مصر ٢ : ٢٣١) قال حاكياً عن يحيى بن أكثم المتوفى سنة ٢٣٢ : إن المأمون المتوفى سنة ٢٢٨ يوماً لجالس إذ دخل عليه على بن صالح الحاجب، فقال: ياأمير المؤمنين رجل واقف بالباب، عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة يطلب الدخول للمناظرة، فعلمت أنه بعض الصوفية. فأردت بأن أشير أن لا يؤذن له. اهـ ثم حادثه المأمون وخلى سبيله، فأمر على بن صالح أن يوجه من يتبعه حتى يعلم أين قصد، ففعل ذلك ثم رجع وقال: ياأمير المؤمنين وجهت من اتبع الرجل فمضى إلى مسجد فيه خمسة عشر رجلا في هيئته وزيه فقالوا له: لقيت الرجل؟ قال نعم، قالوا فما قال لك؟ قال ما قال لى إلا خيراً. ذكر أنه ضبط أمر المسلمين حتى تأمن سبلهم، ويقوم بالحاج، ويجاهد في سبيل الله ويأخذ للمظلوم من الظالم ولا تتعطل الأحكام. فاذا رضى المسلمون برجل فاجتمعوا عليه سلم اليه الأمر، وخرج اليه منه، فقالوا: ما نرى بهذا الأمر بأساً، وافترقوا. اهـ وكأن يحيى بن أكثم استدل على كون الرجل صوفياً بزيه ورغبته في مناظرة السلطان.

وذكر الطبرى في تاريخه (طبع ليدن ٣ : ١٦١٧) في حوادث سنة ٢٥١ — ثلاثمائة رجل من الجارودية والزيدية وعامتهم صوافية (وفى نسخة صوفية) ثم في ص ١٦١٨ سماهم أصحاب الصوف أى لابسى الصوف أو ناساً علامتهم وشعارهم الصوف.

ولبس الصوف مما يدل على الفقر والذل والزهد، قال أبو تمام الشاعر المتوفى سنة ٢٢٨ :

كانوا برود زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

أى افتقر، وكان لبس الصوف من زى الزهاد والمتألهين قبل ظهور الطائفة المشتق منه

(١) راجع الجزئين الثالث والرابع (يوليو وأغسطس سنة ١٩٣١) من مجلة (المعرفة)

اسمها. وقد ورد في الأغاني (١١ : ٧٣ و ٦١ من الطبعة الأولى ١١ : ٧٠ و ٥٨ من الطبعة الثانية) أن عبد الله بن معاوية المعاصر لمتأخري بني أمية، دعا إلى الرضا من آل محمد (ص) ولبس الصوف وأظهر سيما الخير : وأن الجحاف المعاصر لعبد الملك بن مروان خرج في المشيخة الذين شهدوا معه ، قد لبسوا الصوف، ولما أمنه عبد الملك دخل عليه بجبة صوف . اه

وتسمية الطائفة التي ظهرت في سنة ٢٠٠ بالصوفية، كتسمية طوائف بالمبيضة والمحمرة والمسودة لاتخاذ أهلها ثياباً تلك ألوانها، ثم صار لبس الصوف كناية عن التأله، قال الحريري في مقامته الخمسين: رأوا أبا زيدها المعروف ، قد لبس الصوف وأم الصفوف .

وخرج أئمة الحديث — البخاري ، وأبو داود، وابن ماجة — أحاديث تدل على جواز لبس الصوف وغلاظ الثياب وبيضها والتشمر (راجع كتاب اللباس في الصحيح وفي السنن) وفي فتح الباري (١٠ : ٢١٠) عن ابن بطال أن مالك بن أنس كره لبس الصوف لمن يجد غيره ، لما فيه من الشهرة بالزهد ، لأن إخفاء العمل أولى . اه

ويشبه حكاية يحيى بن أكثم خبر المقدسي صاحب كتاب أحسن التقاسيم (طبع ليدن ص ٤٠٥) قال : لما دخلت السوس في سنة ٣٧٥ قصدت الجامع في طلب شيخ أسمع منه شيئاً من الحديث، وعلى جبة صوف قبرصية وفوطة بصرية قدفعت إلى مجلس الصوفية ، فلما قربت منهم لم يشكوا إلا وأنا صوفي. اه، وأورد دوزي في قاموسه من كتاب اسمه رياض النفوس كلاما (رأيت رجلا) عليه جبة من صوف فقلت له يا صوفي .

وأقدم مصنف وجدت عنده ذكر الصوفي هو الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ . قال في الصفحة ١٠٣ من المجلد الاول من كتاب الحيوان : إن لجميع أهل النقص ولأهل كل صنف منهم نسكا يعتمدون عليه في الجمال، ثم قال: ونسك اليهودي التشدد في السبت وإقامته ، والصوفي إظهار النسك بين المسلمين، إذا كان فشلا يبغض العمل تظرف وأظهر تحريم المكاسب وعاد سائلا وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له ، وإذا كان النصراني فشلا نذلا مبغضاً للعمل ترهب ولبس الصوف لأنه واثق أنه متى لبس وتزيا بذلك الزي وتحلى بذلك اللباس، وأظهر تلك السيما — أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة أن يعولوه ويكفوه. اه ويلفت النظر أن المستميل للناس بلبس الصوف عنده هو النصراني دون الصوفي . ولست أرى سبباً لذلك إلا كون الصوفي لابد له من لبس الصوف ، وهو علامته وشعاره. ثم يلفت النظر جعل الصوفية من أهل النقص ، ويطابق ذلك ما أخبر به الكندي والمسعودي من معارضتهم أمر السلطان .

فبناء على ماسبق ذكره نسكن إلى اشتقاق الكلمة من الصوف ، وذلك ما اختاره أبو جعفر الطبري، وفي كتابين قرأناهما لأقدم مصنفي الصوفية الحارث المحاسبي — لم نجد إلا ما يتعلق بالزهد وإصلاح ما فسد من الأخلاق ، ثم أدخل المتأخرون منهم مذاهب ودعاوى اقتضت انتسابهم إلى غير الصوف الذي اتخذه ممهدو طريقتهم علامة وشعاراً

د . س . مرجليوث